

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي مفكرا ومصلحا

الزوهرة الصنهاجي *

zhour.senhaji@gmail.com

تقديم إن البحث في الفكر الإصلاحي عند الحجوي الثعالبي في هذه الورقة إنما جاء لدواعٍ ثلاث أكدت حضور فكر هذا الرجل في القرن العشرين بامتياز؛ الداعي الأول زمني، إذ إن البحث في الفكر الإصلاحي في هذا القرن يستدعي بطبيعة الحال استدعاء هذا النموذج الذي كان له حضور فاعل فكري وممارسة. ثم الداعي الثاني أنه كان يجمع بين كونه فقها مجتهدا مصلحا، وموظفا مخزنيا، وتاجرا متمرسا بأساليب التجارة والرحلة، حيث زار الكثير من دول العالم الإسلامي، ثم رحلاته المتعددة لمختلف دول أوروبا. هذا المفكر الموسوعي الذي وظف موسوعيته في فكره الإصلاحي، وجمع بين التنظير والممارسة، لا يمكن بحال لدارس هذه المرحلة إقصاءه، فحضوره توجيه قوة مواقفه، وكتابات ومؤلفاته، ورؤاه الإصلاحية التي كانت تحمل من المناهج والمضامين ما هو سابق عن أوانه، وعمله في مناصب مختلفة وحساسة في دار المخزن.. لا يمكن إلا أن يكون مفكرا مصلحا، يحمل هم إصلاح أمته وإخراجها من حالة الفوضى والجهل والأمية التي عمرت لسنين طوال.

وهذه الورقة هي محاولة لملامسة مجموعة من الأسئلة التي فرضت نفسها أثناء التعامل مع هذا النموذج. ويمكن إجمالها في: كيف السبيل إلى رفع مستوى المغرب في كل القطاعات وإزالة معيقات إصلاحه وإصلاح مؤسساته؟ هل سيقبل المغاربة في هذه المرحلة التي غلب عليها الجمود والتكاسل والتي هي حصيلة مراحل ممتدة في التاريخ بإصلاحات كلها حركة وعمل وعطاء؟ بل أكثر من ذلك هل سيقبلون بمشروع من أسسه الإصلاحية؛ الاقتداء بالدولة الحامية، وهي في نظرهم دولة كافرة، سالبة لحرياتهم، ناهية لخيراتهم؟

وإسهاما منا في مقارنة هذه الشخصية، وفي بلورة منهج تاريخي سني للتجارب الإصلاحية التي مرت في تاريخ الأمة، منطلقا من الدين ومستوعبا للواقع ومتبصرا بالتنزيل ومستشرفا للمآلات فقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع الذي قسمناه إلى محورين أساسيين، هما: المحور الأول: الحجوي الثعالبي والأسس المرجعية المؤطرة لفكره الإصلاحي. المحور الثاني: مداخل الفكر الإصلاحي عند الحجوي الثعالبي.

1. الحجوي الثعالبي والأسس المرجعية المؤطرة لفكره الإصلاحي

1.1. نسب الحجوي الثعالبي وتكوينه العلمي: هو محمد بن الحسن بن العربي بن أبي يعزى بن عبد السلام بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الهاشمي الزينبي^أ. ولد بفاس سنة 1874م وتوفي سنة 1956م، وبذلك يكون قد عاصر خمس ملوك من ملوك الدولة العلوية وهم: الحسن الأول وعبد العزيز وعبد الحفيظ ومولاي يوسف ومحمد الخامس. هذه المرحلة التي عاش فيها المغرب الكثير من الأحداث الجسام والشدائد والأهوال، فقد عاش الحجوي في مرحلة وصفها بقوله: "رأى المغرب فيها من الأهوال والشدائد ما يشيب له الرضيع وتندك له الجبال".^ب كما وصفها أبو عبد الله ابن الأعرج بقوله: "وقد أحاط بالمغرب من المصائب العجب العجاب وبيت المال انقى من الكف، والمشاكل السياسية زاحفة على الوطن بالصف، والتداخل الأورباوي بلغ حد النصاب".^ج

وفي معرض ترجمته لنفسه بين عقيدته بقوله: "وأما عقيدتي فسنية سلفية، أعتقد عن دليل قرآني برهاني ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدون، مالكي المذهب".^د

تلقى الحجوي أولى دروس العلم في البيت، فوالده كان أول من ألقى عليه دروس في العقيدة السنية السلفية طبقا للقرآن الكريم، وزوده بمنهج التعامل مع مختلف العلوم والقضايا. ولما بلغ الحجوي السنة السابعة من عمره أدخله أبوه إلى مكتب خصوصي مع إخوته وأبناء الحي، حفظ القرآن الكريم وأتقن الكتابة والقراءة والتجويد والرسم والحساب وبعض مبادئ الدين وبعض متون العقائد والنحو، وقد تتلمذ على يد علماء كبار^v، كما استفاد من مختلف فئات المجتمع، خاصة التجار منهم.

شغل الحجوي منذ شبابه وظائف ومناصب رسمية سامية في المخزن، كما مارس أنشطة مهنية أخرى إلى جانب وظائفه المخزنية كالتدريس والتجارة. ففي ترجمته لنفسه ميّنا المناصب التي تقلدها والمهام التي قام بها أداء وإصلاحا، اجتهدا وتجديدا، يقول أنه كان "أمين ديوانة وجدة ثم مفتش الجيش الذي كان مرابطا هناك لصيانة وجدة من هجوم بوحمارة ... وقد كافاني المخزن على هذه الأعمال بترقيتي إلى وظيفة أعلى، زيادة على ما قبله، وهو نائب الملك في الحدود، وفي فصل دعاوى الإيالتين الجزائر والمغرب... سميت نائب الصدارة العظمى في وزارة المعارف والعلوم، أول ما أحدث هذا الوظيف في المغرب أيام السلطان المولى عيّد الحفيظ ابن الحسن، فقبلته رجاء نفع عام"^{vi}.

2.1. الأسس المرجعية المؤطرة للفكر الإصلاحي عند الحجوي الثعالبي: إن الحجوي في رؤاه الإصلاحية والتحديثية كان منطلقا من أسس شكلت مرجعية في فكره الإصلاحي، وهي:

أولاً: المرجعية الدينية قرآنا وسنة، واطلاعه الواسع على الفقه الإسلامي منذ القرن الأول الهجري إلى القرن الذي وجد فيه. هذا يظهر بجلاء من خلال كتابه "الفكر السامي" الذي بين مدى سعة علم الرجل بالمجال الديني، وخصوصا الفقهي عبر العصور، إضافة إلى تربيته التقليدية التي نشأ عليها والتي تتميز بالتسامح والثقة بالنفس، والإيمان بالعمل النافع.

ثانياً: تربيته التقليدية المحافظة التي ترباها في بيت أبيه وأمه ومع جدته التي قال في تربيتها وتوجيهها له: "ربيت في حجر سيدي الوالد والوالدة الصالحة القانتة وكان لهما الاعتناء التام بتربيتي وتهذيب وإصلاح شؤوني إذ كنت أول مولود لهما، واستعانت الأم في ذلك بجديتي من قبل الوالد... هذه السيدة الجليلة القدر كانت على جانب من التبتل والعبادة، صوامة قوامة محافظة على أوقات الصلاة، حافظة للسناها وجوارحها عن الخروج عن عبادة الله تعالى مكبة على طاعته... فكانت أفعالها وأخلاقها كلها دروساً عملية تهذيبية ينتفع بها من نفعه الله من العائلة كلها أتلقاها عنها والفكر فارغ من غيرها فكانت كنقش في حجر في القيام باكراً وإسباغ الوضوء للصلاة والنظافة وحفظ الثياب والاعتناء بكتاب الله والمحافظة على أوقات المكتب وحب المساكين ورحمة الضعيف والتعليم فهي التي غرست في قلبي عشق العلم والهيّام بحفظ القرآن العظيم... فمراة أخلاقها وأعمالها في الحقيقة أول مدرسة ثقفت عواطفني ونفثت في أفكاري روح الدين والفضيلة، فلم أشعر إلا وأنا عاشق مغرم بالجد والنشاط تارك لسفاسف الصبيان متعود على حفظ الوقت أن لا يذهب إلا في ذلك، شيق إلى كل تعلم وتهذيب، لا أجد لذلك ولا نصبا، بل نشاطاً وداعياً..."^{vii} يظهر من مقالة الحجوي في حق جدته أنها ساهمت بدور كبير في تكوينه الأخلاقي والعلمي المعرفي حتى إنه ليتمكن عدها مصدراً من مصادره المعرفية.

ثالثاً: تقلبه في مجموعة من الوظائف المخزنية، وتجربته الطويلة في ميدان السياسة والتجارة والعمل التأليفي، حيث ساهم تقلب الرجل في وظائف حساسة في الدولة في تكوين وبناء فكره الإصلاحي، لأنه تعرف من الداخل على جهاز المخزن وسلطة الحماية، واستطاع ملازمة مكاتب الضعف والقوة في الجهازين.^{viii} وبعد استعفائه من وظائفه تفرغ للتأليف ونشر العلم بفاس والعمل بالتجارة.^{ix} كان لعمله بالتجارة فائدة عظيمة، حيث اعتبر العمل بها مصدراً من مصادره المعرفية بشؤون التجارة والتعرف على أحوال الناس والبلدان والاستفادة من تجاربهم.

رابعاً: معرفته بالتجارب الأوربية، يمكن القول في هذا الباب أن الحجوي ومع تخرجه من المدرسة الإسلامية التقليدية. فقد كان يرى بأن التحديث في الدولة في كل مجالاتها لا يتنافى مع النموذج الإسلامي، لأن الإصلاحات الحداثية التي دعا إليها هي من قبيل المشترك الإنساني في عمومها، ثم إن الواقع كان يحتاج إلى ذلك، خاصة وأنه كان يعرف بأن إنتاج المغرب عاجز أمام نمو الاستهلاك، وما ترتب عن ذلك من ديون أوقعته في براثن الاستعمار، وأنه للقدر على مواجهة التحديات لابد من الإصلاح، وذلك باعتماد إصلاحات ترقى إلى مستوى تلك التحديات التي يفرضها الآخر القوي الشوكة بأساليبه ومخترعاته الحديثة وتجارته القوية التي كانت من أسباب قوته تلك.

هذا التنوع في مصادره المعرفية دفعه إلى الكتابة والتأليف في وقت مبكر، أي منذ سنة 1898م حتى بلغت مؤلفاته حوالي مائة وعشرة مؤلف بين صغير وكبير، شملت مختلف الجوانب العلمية والمعرفية. إذ من هذه المؤلفات ما كان -كما قال- "مسامرة أو محاضرة ألقيا في موضوع علمي أو اجتماعي، أخلاقي أو اقتصادي أو نحو ذلك، فيقع موقع الاستحسان، فيصير تأليفاً".^x وقد كتب في الفقه والحديث والسيرة والتوحيد والتصوف، وفي الأدب واللغة والتاريخ والرحلات والاقتصاد والطب والموسيقى وغيرها.^{xi} ركز الحجوي في هذه المؤلفات على معالجة مختلف القضايا التي تعرقل تطور البلاد وتقدمها، وكان حريصاً كل الحرص على الانفتاح على مختلف القضايا المعاصرة، لم يرفض المستجدات، بل حاول فهمها واستيعابها ومعالجتها وفق ما يحفظ الهوية المغربية العربية والإسلامية.

يتميز منهج الحجوي في التأليف "بالدقة والتمحيص في الخطأ والصحيح، وعند تناوله لموضوع معين، يبدأ بالتعريف بالمصطلح، ويقدم نبذة عن تاريخية الكلمة، ويذكر أحياناً من سبقه إلى الموضوع، ويورد مصادر أفكاره ويعلق عليها أحياناً ويبيدي فيها رأيه، ويصحح بعضها".^{xii} وقد كان لذلك دور كبير في تكوينه العلمي والمعرفي حيث حاول من خلال هذه المؤلفات بلورة مشروعه الإصلاحي، وإبراز آرائه في مختلف القضايا والأحداث التي عرفها المغرب هذه الفترة.

2. مداخل الفكر الإصلاحي عند الحجوي الثعالبي

1.2. المدخل التربوي التعليمي: كانت قضية التعليم من القضايا التي شغلت هذا المفكر المصلح، حيث يمكن اعتبارها من الركائز الأساسية التي قام عليها مشروعه الإصلاحي، فالتعليم في تقديره هو أساس رقي الشعوب والدول، وما تقدمت البلدان الأوربية، التي لأمس تقدمها في سفريات المتكررة لها، إلا بالتعليم والنظام. هاتان الركيزتان اعتبرهما الحجوي هما أساس التقدم والرقى والتحضر. ولذلك ظل سؤال إصلاح التعليم هو السؤال الذي أرق فكر الرجل.

اهتم الحجوي كما اهتم غيره من رجال الإصلاح بإظهار سلبيات واقع التعليم في المغرب وتجلياته التي جعلها سبباً من الأسباب في دونية البلاد وانحطاطها وتراجعها مقارنة مع غيرها من بلدان العالم، يقول: "أما نحن فليس هنا ما يطلق عليه إدارة المعارف، ولا لهذا الاسم معنى عندنا ولا اسم مدرسة ولا معارف".^{xiii} ولذلك ولما أسست وزارة المعارف والعلوم وكان أول من عين على رأسها سنة 1330هـ/1912م اهتم بأمر جامع القرويين، وفي ذلك يقول: "فكان أمر القرويين أول ما همي قلباً وقالبا، لأنها أمة وظئري ومن ثديها العذب ارتضعت، وبها أميطت عني التماثم".^{xiv}

كانت خطته الإصلاحية تهدف إلى إصلاح أنماط التدريس، وتنظيم الدروس، ورفع فعالية المدرسين والطلبة، واختيار الكتب المهمة والمفيدة دون الاقتصار على المختصرات، بل دعا إلى ضرورة إحياء العلوم العربية والإسلامية مع الاهتمام بالعلوم العصرية ومسألة النظام والتنظيم في التعليم. لكن مشروع الحجوي هذا ورغم متانته وقوته لم يطبق منه ما كان يصبو إليه لأسباب داخلية وأخرى خارجية، فالداخلية منها أن العلماء المحافظين ودعاة التقليد "كانوا يعارضون مبدأ التجديد بالرجوع إلى الأصول والتركيز على الفروع والإبقاء على التقليد".^{xv} كما رفضوا هذا المشروع بدعوى أنه سيحد من

استقلالية الجامع بإخضاعه لسلطة الموظفين المخزنين الذين سيمارسون سلطتهم على الجامع، وبالتالي إخضاع العلماء لضوابط التقنين التي جاء بها المشروع، مبررين موقفهم أن هذا التجديد يتنافى مع ما تعارفت عليه الأجيال التي تعاقبت على القرويين. ومهما تكن المبررات فإن القضية كانت قضية صراع بين دعاة التقليد ودعاة النهضة والتجديد، هذا الصراع الذي لم يعرقل إصلاح القرويين وحسب، بل وقف في وجه كل دعوة إصلاحية تجديدية نهضوية، لأنها في اعتقادهم ستزعزع من بين أيديهم ما كانوا يتمتعون به من صلاحيات، ولذلك كانوا يفضلون بقاء الحال على ما كان.

لم يكن مشكل المحافظين على القديم وحده الذي وقف في وجه هذا الورش الإصلاحي، بل كان للعامل الخارجي دوره كذلك، فالمستعمر أيضا عمل على توقيف هذه المحاولة الإصلاحية بذريعة العجز المالي وعدم ملائمة الظروف، لأن الإصلاح من الداخل كان لا يتوافق ومنظوره الاستعماري، الأمر الذي تأسف عليه الحجوي لأنه كان على وعي بأن إصلاح القرويين من شأنه أن يرفع مستوى التعليم في المغرب. يقول الحجوي: "أقول ومن غير تمدح أو تبجح: إن ذلك النظام لو خرج من حيز الخيال إلى حيز الأعمال، لكان محييا للقرويين مجددا لهيأتها التدريسية تجديدا صحيحا متينا، ولكن مع الأسف المكدر تداخل في القضية ذوا الأغراض الشخصية، فبينما نحن نبي ونصلح ونرمم بفاس، وقد شرعوا في الهدم والتخريب في الرباط بغير فاس، وما كدنا نختم القانون المشار إليه حتى صدر أمر شريف برجوعنا، ولم يبق من مشروعنا إلا أن راتب المدرسين ضُغِفَ أضعافا وهكذا يفعل التحاسب وحب الأثرة بين نبلاء المغاربة الذين أشربوا في قلوبهم حب إيثار الأغراض الشخصية على المصالح العمومية بل والدينية".^{xvi}

هذا وقد زاد إلحاح الرجل على ضرورة إصلاح التعليم بعد زيارته لأوروبا سنة 1919م وما شاهده من المنجزات بباريس، يقول: "ولقد أعانهم على هذا وذاك اقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علو همتهم، وكمال النظام في الأعمال والأحكام، وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف بالنظام في كل شيء، وإتقان كل عمل يأتونه، وعلو الهمة في الترفه وحب الجمال والتظاهر بالكمال، والهيام بالعلوم والمعارف، وأساس ذلك كله هو العلم، فالتعلم عندهم إجباري على الرجال والنساء، فكل صبي بلغ سن التعلم لا بد أن يدخل المدرسة ويتعلم التعليم الابتدائي: القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب والتاريخ والجغرافيا، والأدب. ثم من كان غنيا وأراد التعليم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا أو ليس له داعية للعلم فلا بد أن يعرف صناعة من الصناعات، ولذلك نرى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى، والغني والفقير، بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يعرف غالب أفرادها كتابة ولا أدبا ولا حسابا... كأهل المغرب الأقصى مثلا".^{xvii}

إنهما عنصران متداخلان؛ الرحلة الأوربية التي جعلته يقف عن قرب على تجليات التقدم والرقى القائم على العلم والمعرفة، ثم نظام الحماية بالمغرب، هذه العناصر أثرت في رؤية المراجعة المعرفية عند الحجوي، ورؤية النقد الذاتي القائمة على الوعي الحقيقي بالتأخر من جهة، والوعي بضرورة التجاوز من جهة ثانية، والتي دفعته إلى التفكير في التصحيح، تصحيح ذلك الواقع بإرادة المعرفة الجديدة، المعرفة العصرية، القائمة على المعرفة بالآخر. ولذلك نجده في غير ما مناسبة يدعو إلى ضرورة التعرف على هذا الآخر، حيث كان يدعو العلماء الذين عليهم المعول في تمدين البلاد والدفع بها قُدُما نحو التنوير إلى الاطلاع والإفادة من إنجازات أوربا الحضارية، حتى "نكتسب ثقافة دنيوية نخرج بها من العزلة، تلك العزلة التي كنا بها منزوين في ركن الخمول عن العالم وندخل بسببها في ميدان الحياة الراقية".^{xviii}

لم يعد ثمة مجال للانغلاق الذي تأخر بالمغاربة قرونا من الزمن عن منجزات الحضارة الغربية إذا ما قيس ذلك بمنطق الإنجازات لا بمنطق الزمن. وقد أعطى الأمثلة تلو الأخرى على هذه الإنجازات التي حققها أوروبا، باحثا بذلك عن أسباب النُظُم التي صيرت المركب الصغير في البحر إماما كبيرا، والكبير مأموما لما عند ذلك الصغير من زيادة العلم، فعلمنا يقول الحجوي: "أن الرياسة ليست بكبر سن ولا بعظمة جثة، وإنما يستحقها من له مزيد علم ومعرفة بأسرار الدنيا".^{xix} وفي

تمجيده للعلم وما يصنعه بالإنسان، كان يرى بأن العلم يقلبه الإنسان ويحوّله حتى يصبح "البدوي الجافي يتدفق أدبا ونبلا حتى يصير قاضيا وموثقا ومفتيا... ومهندسا وطيبيا... ومسيرا معمل وهؤلاء الذين حازوا غنى الأرض".^{xx}

إن العلم في رأي الحجوي لا يحول الإنسان فقط، بل كذلك الأشياء، إنه في نظره يحول البر بحرا، والتراب تبرا، وأثاره ومخترعاته هي التي دفعت العلماء للغوص في السماء والتخليق في الهواء والدوران حول الأرض في بضعة عشر يوما. ويشترط الحجوي لإدراك هذا كله تحصيل العلوم الرياضية والطبيعية.^{xxi} وللحصول على هذه العلوم التي رفعت من شأن أصحابها، دعا إلى ضرورة تعلم اللغات وعلى رأسها اللغة الفرنسية. يقول: "مهما عرفت اللغة الفرنسية إلا وتوصلت إلى قضاء أغراضك بأيسر وسيلة".^{xxii} كما ألح على ضرورة الاعتناء بالترجمة^{xxiii} لفائدتها في التواصل وتمتين العلاقات مع الدول الأجنبية، وكذا نقل العلوم والمعارف.

لم يفت الحجوي وهو يدعو إلى ضرورة إصلاح التعليم أن يربط الأسباب بالمسببات، يبدو ذلك وبجلاء في ربطه بين العلم والقوة والتقدم في أوروبا، وبين ظهور المصائب والنكبات في الأمة بسبب الجهل، مبينا أن العلم هو السبب وراء تقوي أمة على أخرى، لأن الزيادة في العلم تزيد في القوة والغلبة، والتقدم والرقى حليف أهل العلم والمعرفة، وبذلك ربط "تقدم الأمم بقدر اعتنائها بالعلم العرفان".^{xxiv}

كما ربط بين تقدم العلم في الأمم المتقدمة وبين ما ينفق من أموال على المدارس وشراء الكتب. فقد شاهد كل ذلك ولامسه عن قرب من خلال رحلاته وسفرياته إلى بلاد أوروبا، حيث وجد أن "كل مدينة ترى فيها المدارس مشيدة ونوادي العلم عامرة وقد نظمت لذلك جمعيات... زيادة على الحكومات التي جعلت للمعارف وزارات، فهم لا يتكلمون على الحكومة في كل شيء مثلنا".^{xxv} بينما ربط تفشي السحر والشعوذة التي سودت سمعة المغاربة وفي تونس ومصر بانتشار الجهل والأمية، لأن حكامها ومسؤوليها "قصروا فكرهم على اقتناء الغانيات المغنيات، وتشديد القصور، وبذلك ينقطع ذكرهم بدخول القبور".^{xxvi}

إن العلم والمعرفة في نظر الرجل هما أساس كل شيء، بهما يوجد كل شيء وبدونهما لا يوجد أي شيء، ولذلك اعتبر العلوم والمعارف "أولى وأحق من الكل، وبها يوجد الكل".^{xxvii} ولذلك طالب الحجوي بضرورة تعميم التعليم وإجباريته حتى تعم الفائدة كل فئات المجتمع، وألا يظل التعليم حكرا على فئة دون أخرى أو منطقة دون منطقة، لأنه لا يرى مكانة للمغرب في مصاف الدول المتقدمة إلا بتعميم القراءة والكتابة بين الحواضر والبوادي، حتى يصير جل أفرادها رجالا ونساء يقرؤون ويكتبون ويحسبون. وبذلك يستوي الناس في إدراك مالهم وما عليهم، ويتساوى السوق والعالم، والوزير والصانع في معرفة النافع والضار للبيئة الاجتماعية.^{xxviii} وهو في دعوته هذه يريد اقتباس طريقة الفرنسيين في الاهتمام بالتعليم وما يعطيه من نتائج طيبة تعود على مجتمعهم بالتقدم والرقى في مدارج الحضرة، يقول: "فالتعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء؛ فكل صبي بلغ سن التعلم لابد له أن يدخل المدرسة ويتعلم التعليم الابتدائي، ثم من كان غنيا وأراد التعليم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا أو ليس عنده داعية للعلم، فلا بد أن يعرف صناعة من الصناعات. وهكذا ترى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى والغني والفقير، بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير المتعدنة كالمغرب الأقصى مثلا".^{xxix}

كما دعا الحجوي إلى ضرورة وضع كتب لدراسة تاريخ إفريقيا الشمالية، وعاب على أصحابها تدريس تاريخها عن كتب الغير، وأنه لا يمكن أن يتم النظام في القرويين والزيتونة إلا بكتب الدراسة الموافقة لروح العصر، وبذلك تنتعش اللغة والأدب وتدب في العلوم حياة قوية، ويرقى المعهدين إلى المستوى المطلوب.^{xxx}

ظل الحجوي وفيما لمطالبه بتأليف الكتب الدراسية الملائمة للمنهج التحديثي العلمي في مشروعه الذي لم يكتب له أن يرى النور؛ مشروع إصلاح القرويين ويتعلق الأمر بالقسم السابع من الضابط الأساسي لإقرار النظام التعليمي بالقرويين المشتمل على خمس مواد في المجازات على تأليف الكتب ولاسيما الدراسية.

اهتم الحجوي أيضا بالعلوم العقلية التقنية التطبيقية الدقيقة، مبينا أنها من صميم اختصاص السلف والتي لم يحافظ عليها الخلف، فأخذها الأوروبيون وتفننوا فيها إلى درجة أنهم استخدموا الجمادات لغاية ترويج بضائعهم ومصنوعاتهم والإعلان عليها.^{xxx} وقف الحجوي في سفرياته على ما قدمته هذه العلوم لأوروبا من تفوق ورقي، ولذلك دعا إلى محاكاتهم في تدريسها والعناية بها عن طريق نشر المدارس التقنية في جميع أنحاء المغرب، وربط التكوين النظري بالتطبيق، كما بين دور المدارس التجارية في التطور والتقدم السياسي والثقافي والحضاري، يقول: "لاريب أن انتشار العرفان في الأمة حتى ينال حظها منها التاجر والصانع وغيرهما عنوان ذكاء الأمة ورفي فكرها وحسن مجتمعا".^{xxxii}

ربط الحجوي تقدم أو تأخر البلاد بمدى حضور أو غياب علم التجارة بها، ولذلك اجتهد وأفتى بأن إنشاء المدارس الصناعية الحرفية والتجارية يعد فرض كفاية على الأمة^{xxxiii}، بإتباع فتواه على المصلحة العائدة على الأمة من تقديم الأولاد لعلم التجارة. يقول: "إني لا أرى للتجارة الفاسية، بل المغربية، نجاحا مع الجهل بفنون التجارة والإعراض عنها... وهما هيات أن يبقى لأهل فاس أو أهل المغرب ما كان لهم من مجد الثروة، مع الجهل بأسباب حفظها وارتقاءها، مع ما تعودوه من قلة الاقتصاد واتباع العوائد الفاسدة والزوائد الباردة".^{xxxiv}

إن الحرص على الاستقلال في نظر الحجوي يستدعي بالضرورة الحرص على تكوين الأطر، وإيجاد العقل الحذر المتحلي بالعلوم والمعارف الوقتية. وهو مشروع مستقبلي يتطلب الاستعداد والقوة النظرية والواقعية، كما يتطلب إدخال المعارف والفنون العصرية من كل أنواع الصناعات الحديثة والفلاحة والتجارة... وإقامة كل ذلك على العلم والمعرفة العصرية المتقدمة، وذلك يستدعي في نظر الحجوي ضرورة الانفتاح والانتفاع من "فنون المعرفة العصرية" التي هي أساس تحديث النظام التعليمي الذي عليه قيام تطور الحياة في كل مجالاتها. وذلك ممكن إذا ما قامت الإرادة الفاعلة بدورها في تنوير عقول الرعية عن طريق فتح المدارس وتحديث المناهج، وتعليم العلوم الدينية والوقتية على حد سواء، وتلك هي أفضل وسيلة لإخراج الاستعمار، يقول: "إن الاستقلال لا بد له من رجال قد يمكن إيجادهم بعد عشر سنين، بعد إصلاح التعليم إصلاحا جديا".^{xxxv}

كان الحجوي يروم من وراء دعوته لإصلاح التعليم بناء أسس نهضة علمية تكون هي أساس النهضة في سائر الميادين الأخرى، لأن العلم هو أساس الرقي، والجهل أساس الشقاء والتعاسة والانحطاط. لقد كان الرجل مقتنعا أن أساس تقدم الدول الأوروبية هو العلم والمعرفة والنظام، وهو الثلاثي المفقود في بلاد المغرب، ولذلك نجده مقتنعا بضرورة الاقتداء بالأوروبيين ومحاكاتهم في إصلاح التعليم وتلمس أسباب النهضة، وفي ذلك يقول: "فإن شاءت الأمة النهوض فلتبدأ بإصلاح التعليم".^{xxxvi}

لكن يبقى الفشل حليف مشروعه الإصلاحي في هذا الباب رغم جديته ومتانته وحاجة البلاد إليه في لحظته وفي القادم من الأيام، لأن الرجل كان يمتاز بقوة التخطيط الاستراتيجي المستقبلي. يقول حسن أحمد الحجوي: "إن محاوره الرجل للواقع المعاش المتجلي في الخط التقليدي السكوني، والإصرار على فلسفة الرفض لكل ما يحمل تغييرا أو يأتي بجديد، ومجاهته لهذا الواقع العسير لم تكن لتتجسد وحسب في شدة المعاناة، بل وأيضا في مرارة الإخفاق في تبني مشاريعه الإصلاحية من لدن محاوريه سواء من القيادة أو من القائمين على شؤون المجتمع، ناهيك في هذا المقام عن إجهاض مشروع المجلس التحسيني لنظام التعليم بالقرويين وعن إخفاق مشروع التخلي عن نهج المختصرات الفقهية والحواشي، وعن مشروع تجديد الكتاب الدراسي بالقرويين، ناهيك أيضا عن المعارضة الشديدة التي قامت ضد الدعوة إلى تعليم

البنات، باعتبار هذه الدعوة مدعاة إلى تحرير المرأة أخلاقاً وتفوقاً على الرجل". وبالجملة فالفكر العقيم السائد المتمركز على الأنماط المتجاوزة لم يكن ليستسيغ معالم الفكر التحرري الذي برزت في خطابات وكتابات الفقيه الحجوي.^{xxxvii}

2.2. الفكر الاجتماعي عند الحجوي الثعالبي: كان الكفاح من أجل التغيير والإصلاح يدفع إلى الشعور بأن هناك خلافاً داخلياً ذاتياً أصاب المجتمع حتى تغرب عن دينه، ولذلك فإن الإصلاح الاجتماعي المفترض سيقوم على منطق إسلامي ذاتي. ومن ثم كان على الحجوي الثعالبي أن يدفع بالمجتمع إلى التخلص من تلك العلل، والتي على رأسها ضرورة تجاوز الضعف والانحطاط الذي يعاني منه المجتمع المغربي بالثورة على الفكر الجامد المتحجر، والعمل بمبادئ الإسلام، والعمل على ترسيخ مبدأ الحرية في القلوب والأذهان. ولكن في نفس الوقت فإن الانبهار بالحرية وبالقانون الوضعي في الدول الغربية دعا الحجوي إلى التمسك أكثر بالشريعة الإسلامية في صفائها وطهرها، باعتبارها محققة للعدل والمساواة والحرية، فكانت مواقفه مرتكزة أساساً على وجوب التغلب على مظاهر الانحطاط بتغيير واقع مجتمعه الذي يكرس الحجر على الفكر، والاستبداد بالسلطة، وترسيخ الجهل والمعتقدات الفاسدة.

إن من الأهداف الرئيسية التي اهتم بها الفكر الإصلاحي الاجتماعي عند الحجوي، وحاول العمل على تحقيقها النظر في أحوال المرأة؛ واقعها وأسباب تخلفها وقهرها، ورأي الإسلام في تعليمها، وفي تحريرها، وفي الحفاظ على كرامتها، بل في كونه الدين السماوي الذي كرم المرأة وحفظ لها حقوقها، وبوأها مكانة عظيمة.

كان الحجوي من المفكرين القلائل الذين اهتموا بشؤون المرأة اهتماماً عظيماً في خطابه الإصلاحي، حيث دافع عنها في وجه سلوكات الانحطاط، محاولاً تأصيل دعوته التجديدية انطلاقاً من أسس التشريع الإسلامي، ومجتهداً في مواطن عدة للرفع من شأن المرأة كما رفع من شأنها الدين الإسلامي. وهو بذلك قد حاول تصويب صورة الحاضر على مثال الأصل، بل ومحاولة تصويب ما اعوج في المجتمع المغربي في ممارسته لأموال الدين والدنيا وعلى رأس ذلك الممارسات التي كانت ضد المرأة، والعودة بمكانتها التي جاء بها الإسلام. بمعنى أنه كان يطمح إلى تحقيق مطابقة بين إسلام معيش تاريخي، وإسلام مرجعي هو أصل العبادات والمعاملات، وإحياء الوضعية التي كانت عليها المرأة في القرون الأولى الخيرة، أي إحياء النموذج الأصل كما قدمته وضعية المرأة في حقبة الدعوة والخلافة الراشدة؛ أولاً لمكانتها كإنسانة مكرمة من لدن حكيم خبير، ثم لما لها من دور في الأسرة والمجتمع والأمة عامة، ولما كان لجدته خاصة من دور في تربيته تربية بلغت به مبلغ الرجال، حتى قال في شأنها "إن تأثير هذه التربية الأولى على حياتي هي التي أوضحت لي أن تربية الأمهات لها دخل كبير في تهيئة الرجال النافعين، وإعداد الأمم للنهوض".^{xxxviii}

اقتنع الحجوي بأن المرأة المتعلمة الواعية لها دور بالغ الأهمية في صناعة الرجال، وإعدادهم الإعداد الذي يقودهم إلى تحمل المسؤوليات الجسام. ولذلك اجتهد اجتهداً مقاصدياً في قضية الاهتمام بالمرأة وإعدادها لتكون أما صالحة مصلحة. يقول الحجوي في المقاصد والغايات التي لأجلها وجب تعليم المرأة: "أرى وجوب تعليمهن وتهذيبهن، تعليمهما يليق بديننا ويزين مستقبل أولادنا ويصيرهن عضواً نافعاً في هيئتنا الاجتماعية: فلا غنى لنا عن إعانتهم في تربية رجال المستقبل، الذين عليهم مدار حياة البلاد، وتعليمهم في التربية وفي نظام البيت وقواعد الصحة والدين وحفظ القرآن، أو بعضه، والحساب والجغرافيا والعربية والأدب الحقيقي لا الخيالي، ونحو ذلك مما يعينهن على مهمتهن ويضيء لهن الطريق".^{xxxix} علّل الحجوي طرحه الجريء بأسباب ذاتية وأخرى موضوعية، فهل سيقبل رجال عصره بهذا الطرح؟

إن هذه الجرأة تجلت بوضوح في طرح قضية تعليم الفتاة، والاهتمام بالمرأة بشكل عام من فقيه سلفي في هذه المرحلة بالذات سيجر عليه مشاكل مع المحافظين، ولعل أول محاضرة^{xl} ألقاها الحجوي بخصوص هذا الشأن لتثبت صحة هذا الأمر "تعليم الفتاة ومشاركتها في الحياة". هذه المحاضرة سترفض غاياتها ومقاصدها من طرف الحاضرين، وعلى رأسهم

الصدر الأعظم (الوزير الأول) الحاج محمد المقرئ، الذي منعه من إتمامها، معلنا عن رفضه لهذا الطرح، مبررا موقفه بقوله: "إن الإسلام لا يساعد على تعليم البنات تعليما يجعلها تشارك الرجل وتزاحمه في الحياة".^{xli} وسار سيره أبو شعيب الدكالي عندما طلب المقرئ رأيه، أفق وهو السلفي المتفتح والمتبصر بأحوال المرأة وما جرّته وستجره على الأمة من ويلات بسبب جهلها وأميّتها، وقال رأيه الموافق لرأي المقرئ أن: "تعليم الفتاة إلى السن الذي قال به الحجوي لا تقره مبادئ الإسلام". وهو موقف كما قال بذلك عبد الله الجراري غريب لا تفهم حقيقته. ويحق لنا أن نشاطر الجراري^{xlii} في تساؤله عن موقف الدكالي، هل هو نابع فعلا من قناعة أبي شعيب الدكالي وهو السلفي المتفتح الحافظ للعالم بمبادئ الإسلام؟ والإسلام لم يمنع المرأة من الحق في العلم والتعلم الذي جعله الرسول صلى الله عليه وسلم فريضة على كل مسلم في قوله عليه الصلاة والسلام: "طلب العلم فريضة على كل مسلم".^{xliii} فلماذا تستثنى المرأة من هذا الحق المفروض، يبدو أن هذا الجواب من أبي شعيب كان جوابا سياسيا لا اجتهادا فقهيا ساير به المقرئ، فتم توقيف الحجوي من إتمام محاضراته. كتب الحجوي ردا على هذا الموقف، يقول: "إن كثيرا من أهل العصر في المغرب قد استبشعوا ذلك وعدوه بدعة... وكأني لما جهرت بها في ذلك المجمع، خرقت الإجماع، أو خالفت القرآن والسنة. والحال أني موافق لذلك كله، وإنما خالفت ما اعتاده المتأخرون من الذين تأخروا في كل شيء".^{xliv}

رغم هذه المعارضة لم يتوان الحجوي في دعوته إلى تعليم المرأة، لكن هذه المرة ستكون الدعوة -نوعا ما- مختلفة عن سابقتها، بعد مرور عشر سنوات غير الحجوي من لهجته وأسلوبه في هذه الدعوة، لكنه لم يغير موقفه إذ ظل حريصا على تمتيعها بحقوقها في التعليم. فجاء بمحاضرة عنوانها بـ "تعليم الفتيات لا سفور المرأة"، نجده في هذه المحاضرة يميز بين تعليم المرأة وسفورها، منتصرا للتعليم، معارضا للسفور، مبينا في محاضراته الأدلة التي استند إليها في دعوته، والحد الذي ينبغي أن ينتهي عنده تعليمها، كاشفا عن أن غرضه من هذه المحاضرة هو إزالة اللبس، وإذهاب ظلام المخالطة عن أذهان من حمل كلامه ودعوته هذه على غير ما قصده سواء من الوجهة الدينية أو الاجتماعية.

لقد استند الحجوي في دعوته إلى أدلة شرعية، وأخرى عقلية منطقية، وثالثة أدلة من تاريخ الأمة وما استطاعته نساء الصدر الأول خاصة، ونساء الأمة عامة في المساهمة في بناء صرحها وبناء حضارتها.

إن الأدلة الشرعية التي استند إليه في دعوته هي القرآن الكريم والسنة النبوية مبينا أنه لم يقف على دليل فيهما يمنع المرأة من العلم، حتى قال بأنه اكتشف أن القرآن الكريم يدعو إلى تكوين مدرسة للبنات، تعنى بتعليمهن وتهذيبهن، وإثبات حقوقهن في الحياة، كما في قوله تعالى: (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن).^{xlv} يقول: "وتربية البنات وتعليمها ضروري من حيث الدين والاجتماع معا، وليس هو بكلامي كما يظن من لم يمعن النظر في المسألة تأملا ونقدا".^{xlvi} إن تعليمها ضروري من حيث الدين والعقل، يقول الحجوي: "إن الإسلام ثقافة وعلم وتهذيب وأخلاق، فكيف يتصور عاقل أن يمنع تعليم المرأة ويترك نصف المتدينين به خلوا من الثقافة والفضيلة".^{xlvii} ويستدل على ذلك بما ورد في صحيح السنة، يقول: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وبمحمد صلى الله عليه وسلم. والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مواليه. ورجل كانت له أمة فأدبها وأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران".^{xlviii} والحجوي يتساءل: "إذا كان الإسلام يندبنا إلى تعليم الإماء حفظا لمجتمعنا من مفسدة جهلهن، فما ظنك بتعليم الحرائر بناتنا وأعز ما لدينا، ذلك كله في تعليم ديننا وآدابنا ولغتنا وما ينفعهن من علوم الدنيا مما لا يكون ذريعة إلى خلع جلباب الحجاب، ولا للتصدي لسفور الممقوت المخل بالحياء والحشمة والنزاهة والطهر وصبون النسل المقدس؟".^{xlix} أما دليله من التاريخ على فاعلية النساء في بناء صرح الأمة الإسلامية فإن الحجوي يسرد الكثير من قصص نساء المسلمين سواء في تصديق النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإعانتته ماديا ومعنويا في سبيل نشر الدعوة، ومشاركتهن إلى جانب الرجال في بيعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،

وهجرتهم إلى الحبشة وإلى المدينة، وأن أول من استشهد في الإسلام امرأة، ومشاركتهن في تداوي الجرحى في الغزو برا وبحرا وهن غير محجبات ثم وهُنَّ محجبات، وأن حجابهن لم يمنعهن من ذلك ولا من الخروج إلى طلب العلم، بل أكثر من ذلك فإن الأصوليين صرحوا بأن المرأة يمكنها أن تصل إلى درجة الاجتهاد في العلم حتى تكون كمالك والشافعي وأصايرهما. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل لهن يوما مخصوصا لتعليمهن، وكانت أزواجه صلى الله عليه وسلم على قدر كبير من العلم والأدب.ⁱ وكانت عائشة أعلم أهل زمانهاⁱⁱ، وأعطى الحجوي أمثلة كثيرة عن نساء عالمات على عهد الدولتين الأموية والعباسية في المشرق، وفي الأندلس بلغ عدد كاتبات المصاحف بالخط الكوفي مائة وسبعون امرأة زمن زهرة بني أميةⁱⁱⁱ... وغيرها من الشواهد التاريخية التي بينت أن الإسلام لم يمنع المرأة من تأدية واجباتها والتمتع بحقوقها.

ولما أصَلَ لدعوته تلك من الأصول المرجعية للأمة وتاريخها، انتقل الحجوي للحديث عن القدر الذي به تتعلم المرأة ويكفيها في تربية الأولاد وكيفية التعامل مع الزوج، وعن الصناعات التي ينبغي أن تتعلمها لتجدها عند حاجتها إليها. يقول: "لنقتصر بهن على التعليم الابتدائي الذي يقتصر عليه سواد الأمم الراقية، فضلا عن أمة مثلنا لا يحصله منها إلا أقل القليل من الذكور... لسنا بحاجة لها أن تكون عدلا، أو قاضيا، أو كاتبا، أو طبيبا، أو مهندسا، أو محاميا، أو مدير مصنع، أو رئيس مكتب، أو إدارة تجارة...".ⁱⁱⁱⁱ إن هذه المهام لا يراها الحجوي مناسبة للمرأة، ولذلك فتعليمها ينبغي في رأيه أن يقتصر فقط على "تعليمهن وتهذيبهن تعليما يليق بديننا، ويزين مستقبل أولادنا، ويصيرهن عضوا نافعا في هيتتنا الاجتماعية، فلا غنى لنا عن إعانتهم في تربية رجال المستقبل الذين عليهم مدار حياة البلاد، وتعليمهن فن التربية، ونظام البيت، وقواعد الصحة، والدين، وحفظ القرآن، أو بعضه، والحساب، والجغرافيا والعربية والأدب الحقيقي لا الخيالي ونحو ذلك مما يعينهن على مهمتهن، ويضيء لهن الطريق".^{lv} ولها الحق في الاستزادة من العلم ولكن في بيتها من وراء حجاب إذا هي بلغت مبلغا "تكون مطيقة الزواج وتجري فيها دواعي الشهوة والتهيق للولادة".^{lv} وهذا كله درء للفتنة التي تأتي من وراء خروجها من البيت، وكذا سفورها الذي يفضي إلى الاختلاط ومزاحمة المرأة للرجل، كالخروج إلى مجالس الرقص واللهو وغير ذلك مما يكون محل الريبة والفتنة والابتذال، فلا سبيل إليه في الشريعة الإسلامية. وخطر السفور يضر بالمرأة نفسها وبالمجتمع، وفي ذلك يقول: "وانما السفور ويل وثبور على المرأة نفسها، ذاهب بشرفها، وعائق لها عن أداء وظيفتها، فسفور المرأة ناقص من جمالها، ومفتر لأشواق زوجها إليها وثقته بها ومزور بقسمتها، بخلاف تحجبها الذي يزيد في شرفها بما لا يكون عند ابتذالها ولو كانت أبدع النساء جمالا وكمالا".^{lvi}

يربط الحجوي بين نهضة البلاد ورقمها وتقدمها وبين تعليم المرأة والاهتمام بها، حيث يقول: "ولا ترقى أمة ولا تصل إلى مصاف الأمم الراقية ونساؤها جاهلات لا علم لهن بالدين ولا خبر عندهن عن الدنيا".^{lvii}

إن الحجوي ورغم اقتناعه بضرورة تحديث البلاد، ودعوته في غير ما مناسبة إلى محاكاة أوروبا في جميع ميادينها، إلا أنه يظل وهو الفقيه الملتزم بأصول شريعته، المحافظ على القيم والمبادئ الإسلامية والهوية المغربية الإسلامية، يدعو إلى التحديث على منوال الحداثة الأوروبية. ولكن دون أن ينسى جذوره وهويته وتكوينه الديني، ولذلك، ومع أنه عبر عن إعجابه غير ما مرة بالمرأة الأوروبية، وخاصة الإسبانية والإنجليزية سواء في علمها أو أخلاقها، والفرنسية في الجانب العلمي والمعرفي لا الأخلاقي، فإنه لا يريد للمرأة المغربية أن تكون مثلهن إلا في جانب العلم والمعرفة، ولذلك تجده لا يقبل أن تربي المغربيات بالطريقة التي تربت بها الأوروبيات، إنه يحذر من أن تكون تربيتها على تلك المبادئ، فهي سبب هلاكها وهلاك المجتمع معها.

إن إطلاق الحرية للمرأة ومساواتها بالرجل في نظره في جميع الميادين سيؤدي لا محالة إلى فساد المجتمع. لقد كان واعيا كل الوعي بضرورة التدرج في تعليمها مع مراعاة الوسط الذي تعيش فيه، ومراعاة "الذوق الحاضر" كما سماه، يقول:

"إننا والله في حاجة إلى المرأة التي تعلم البنات وتهذبن، والطبيبة والقابلة المولدة والممرضة وطبيبة الأسنان... ولكن ذلك غير موافق للذوق الحاضر وللغيرة التي طبع عليها المسلمون".^{lviii}

مرت عشرون سنة تقريبا على مقترح تعليم الفتيات من طرف الحجوي ليصل المغاربة وعلى رأسهم النخبة إلى نتيجة مفادها ضرورة تعليم الفتاة حتى تساهم في النهضة المنشودة. هذه المرة كانت المبادرة من ملك البلاد فتقبلها الجميع بصدر رحب، وساهم كل من موقعه في الاضطلاع بهذه العملية، لكن يطرح السؤال لماذا كل هذا التأخر؟ مع أن الثعالبي قدم العلل والأسباب التي لأجلها طالب لها بالتعليم، وهي نفسها الأسباب التي سيقولها العربي العلوي في كلمته التي ألقاها أمام الملك عند افتتاح أول مدرسة للبنات بقرية الأحباس بالرباط سنة 1954م، حيث قال: "إذا كانت المرأة راعية على بيت زوجها وولده كما في الحديث النبوي الشريف، كان من الواجب أن تدرك بدرع من العلم حصين، وتسليح بالمعارف والأخلاق الدينية الفاضلة للقيام برعايتها وإمارتها أتم قيام وأحسنه، أما إذا أسندت إليها هذه المهمة وحملت هذا العبء الثقيل وهي عزلاء من كل علم ومعرفة، خالية من كل تربية وتجربة، فإنها تعجز لا محالة، فتضيع ولايتها، وتبني بيتها على جرف هار".^{lix}

لو قبلت دعوة الحجوي في إبانها لما أضع المغرب على بناته سنوات طوال من التربية والتعليم والتكوين. لكن يظل الحجوي من الأوائل الذين كانت لهم جرأة كبيرة حيث طالب بالاهتمام بالمرأة وتعليمها وتكوينها حتى تكون زوجة صالحة وأما مربية مصلحة في وسط لا يمكن ليقبل بهذه الدعوة التي هي في نظره خروج عن المألوف.

3.2. الفكر الاقتصادي: أكد الحجوي على ضرورة تجديد الاقتصاد للحفاظ على الثروة وتطويرها لأنها أساس الترقى والتحضر، ولذلك شدد على ضرورة تطوير الإنتاج والنهوض بأسباب تطوير الاقتصاد، والاجتهاد في مجال المعاملات من أجل خلق فرص الثراء، واعتبر تنمية الثروة والحفاظ عليها من الدين، لأن صيانة المال "أحد الكليات الخمس التي أجمعت الملل والنحل على وجوب حفظها".^{lx}

كان الحجوي يعرف أن رسالة الاستعمار كحركة رأسمالية لم تخرج من الغرب وتتجه نحو الشرق بهدف الربح المادي وحسب، ولكن كانت لها غايات ومقاصد وأخرى يتداخل فيها الاقتصادي والسياسي والفكري والعلمي لتحقيق المقصد الأعلى وهو طمس معالم الحضارة الإسلامية حتى تكون الحضارة الغربية هي القطب الوحيد في العالم والكل تبع لها. ولذلك كان فكره الاصلاحى يستوعب كل هذه المجالات؛ الاقتصاد والسياسة والفكر والعلم... كان يعمل جاهدا من أجل النهوض بها كلها في إطار التداخل الكبير بينها. إذ لا يمكن النهوض بقطاع دون آخر وإلا ظل إصلاحا غير مكتمل، بل إصلاحا لا فائدة ترجى من ورائه، كما كان مقتنعا أن "استقلال الأمم الحقيقي في هذه الأزمان لا يكون إلا باستقلالها اقتصاديا وصناعيا".^{lxi} ولذلك تجده يحث على ضرورة النهوض بكل ميادين الاقتصاد؛ الفلاحة والصناعة والتجارة... ولذلك دعا إلى ضرورة بث روح جديدة في التجارة والصنائع وكافة أنواع الاقتصاد.^{lxii} لأنه "ما افتقرت أمة إلا وضاع مجدها، وذهب سؤدها، إذ المال عصب لكل مجتمع إنساني، وحفظ البيضة إنما يكون بثروة الأمة، واتساع معاملاتها ومتاجرها ومصانعها وفلاحتها".^{lxiii}

ونظرا للأهمية القصوى للمال الذي يمكن مراكمته بالاقتصاد المتطور المتجدد ارتأى هذا الفقيه التاجر ضرورة إعادة التفكير في طريقة إنتاج المال حتى لا يظل التفكير فيه منحصر في جمعه واستهلاكه، بل لابد من استثماره في مشاريع تعود بالنفع العام، ولذلك اهتم الحجوي بالتجارة ليخرج المال من عملية الاقتصاد الاستهلاكي إلى عملية الاقتصاد السياسي والاقتصاد الحضاري الذي عرف في بداية تشكل الدولة الإسلامية، حيث كان الاقتصاد يؤدي هذه المهام بواسطة التجار. كما أراد الحجوي اقتصادا يقوم على نظام البنيوية التي شاهدها عند الأوروبيين في رحلاته، والتي تقوم على مؤسسة

شركات لها مصانعها ومخازن سلعها وبنوكها وقوتها السياسية والعسكرية التي تحميها ليصبح المغرب كغيره من البلدان القوية حتى يتحقق الاقتصاد الرسالي الذي ينهض بالبلاد أولاً، ويجعلها في مصاف الدول المتقدمة ثانياً. وحتى يؤدي الاقتصاد رسالته المنوطة به في تحقيق الشهود الحضاري فقد أُلِفَ الحجوي وحاضر حول هذا القطاع الحيوي، ومن أهم ما خلفه الرجل في هذا القطاع "مستقبل تجارة المغاربة"^{lxiv} في أصلها محاضرة، حاول أن يبين من خلالها كيفية تحسين التجارة لتدارك ما يهددها من المزاحمات الأجنبية، والبعثات المتقاطرة من الجهات الست على البلاد المغربية، ونظراً لما سيترتب عن هذه المخاطر المحدقة بالتجارة أوجب على نفسه وهو الفقيه التاجر تقديم النصائح للنهوض بها.^{lxv}

أكد الحجوي على ضرورة الاستفادة من الغرب ومحاكاته، واقتباس أسباب التقدم والرفق منه، لأن المماثلة في القوة وتحقيق الاكتفاء الذاتي في كل شيء شرط أساسي عنده لتحقيق الاستقلال الحقيقي وصيانتها من كل تبعية. هذه الشروط لا يمكن تحقيقها في نظره إلا بأخذ العلوم الوقتية والتجارب الاقتصادية الموافقة للشريعة الإسلامية من أوروبا. ذلك أن التحديث قد بات فارضاً نفسه، وواجباً بالدليل الشرعي والعقلي، وإلا لن يستطيع المغرب مواكبة المدنية الغربية وتحدياتها. وحتى لا يظل الإسلام غريباً عن العصر وخارجاً عنه، وحتى لا يظل المغرب بعيداً عما يحققه الغرب، اجتهد الحجوي رأيه في كثير من القضايا، وخاصة ما يتعلق بالاقتصاد حتى يكون حديثاً قادراً على مسايرة التطورات الاقتصادية في العالم. ولذلك ركز اهتمامه على التجارة والتأمين والمعاملات البنكية. وهو القائل: "إن مصلحة الأمة والشريعة معا تقتضي التوسع في أبواب المعاملات بما لا يخالف المنصوص والمجمع عليه، ونحن الأمة الإسلامية التي تنكر كل الإنكار علة من يرى القلب والإبدال في الشرائع، وإني من الذين يعتدلون في الأحكام، وفي الفلسفة الفقهية، ولا يغرقون فيها، ولا يرون الاسترسال في الأقيسة، والتحمل في استنباط أحكام بمنع معاملات كثيرة لم يصح نص بمنعها، ولا تضيق على الأمة سبل رقيها، لأنه موجب لفقرها واحتكار تلك المعاملات لغيرها".^{lxvi}

تَلَزَمَ الإصلاح عند الحجوي بالتجارة والمال حتى وُصِفَ إصلاحه بأنه إصلاح ذو نزعة تحديثية تبعاً لانتماهه لفكره المراهن على التجارة، ودور التجار والمدارس التجارية في التطور والتقدم السياسي والثقافي والحضاري. لقد "جعل الحجوي التجارة في الرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الدين في مشروعه التحديثي، واعتبر عدداً من التجار المغاربة من مجدي المغرب وباعثي النهضة فيه لعلاقاتهم الواسعة وتنقلاتهم الدائمة إلى البلاد المتطورة".^{lxvii}

إن الحجوي بحنكته وتجربته وقف على أن المغاربة لا بد لهم من الاستيقاظ من سباتهم الطويل، والعمل على إصلاح حالهم، وتأمين مستقبلهم من الفقر والإملاق، وأكثر من ذلك تأمين استقلالهم وتحضرهم وقدرتهم على تأدية رسالتهم بالاهتمام بالاقتصاد الحضاري لا الاستهلاكي فقط. أي ضرورة الاهتمام بالاقتصاد الرسالي الذي يساهم في دعوة الناس إلى الدين الإسلامي، وهي سنة تاريخية بفضلها انتشر الإسلام في بقاع كثيرة من الكرة الأرضية، حيث كان المسلمون عبر تاريخ الأمة يذهبون في رحلات تجارية ويحملون معهم همّ نشر الرسالة الإسلامية.

4.2. الفكر السياسي عند الحجوي: كانت محاولته الإصلاحية سواء في الميدان السياسي أو غيره من الميادين وليدة معاناة حقيقية، وترجمة لحاجيات الأمة، وذلك يظهر من خلال تأكيده على ضرورة الحرية والعدل والمساواة ودفع غائلة الفقر والجهل والأمية، ومحاربة التقليد والتشدد والجمود، وضرورة التفريق بين مجال العبادات التي الأصل فيها الالتزام بالنصوص الشرعية، ومجال المعاملات والحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتي الأصل فيها استخدام العقل والاجتهاد بما لا يعارض أصلاً من أصول الدين، يقول: "وفي أبواب المعاملات الدنيوية لا تجد النصوص إلا وفق المصالح، وضد المفساد لمن وُفِّق لمعرفة المصلحة الحقيقية، لأن الشريعة هدى ورحمة وأبدية وعامة".^{lxviii} إذ الأصل فيها البحث دائماً عما يدفع المفساد ويجلب المنافع من غير ارتباط بنمط تقليدي صلح في زمانه ومكانه، وأصبح استعماله ضاراً في

هذا الزمان، فلا ينبغي التعامل معه في نظر الحجوي إلا من جهة كونه تجربة من التجارب الإنسانية، وسنة من سنن من قبلنا ينبغي النظر فيها للاعتبار، ومن أجل جلب المصالح الحضارية الحقيقية، ودرء مفسد الرؤى اللامتوازنة في هذه التجارب، والتي أفسدت على الأمة واقعها من حيث كانت تعتقد أنها تريد الإصلاح، لكونها نتاج فكر ورؤى مسجونة بالتقليد الأعى، محكومة بالإتباع على غير هدى. ولذلك، ومن باب المصلحة وقف الحجوي في فكره الإصلاحي السياسي عند قضية اعتبرها من أهم المهمات، إنها قضية "الحكم" حيث عمل على استقراء التاريخ الإسلامي ليقف على هذا النظام عَبرَ المحطات التاريخية البارزة في تاريخ الأمة، كما عمد إلى المقارنة بين نظام الخلافة المبني على الشورى زمن السلف الصالح، وبين الاستبداد بالحكم، واستعباد الناس الذي ساد منذ قرون.

لقد تتبع الحجوي ذلك عبر تنقيبه في التاريخ القديم والحديث للأمة، مستكشفا المد والجزر الحاصل في السلطة، منتقدا وبشدة ما أحدثه "مصطفى كمال" في هذا المجال في تركيا من فصل الدين عن السياسة، واعتبر ذلك تَعَدٍّ صارخ في حق الامبراطورية العثمانية التي نشرت الإسلام شرقا وغربا، واعتبر عمله مشينا في حق الإسلام والمسلمين.^{lxi}

إن الوضع السياسي الذي بات عليه المغرب كان يستدعي ضرورة التغيير. ولذلك شدد الحجوي على ضرورة الإصلاح بعدما انتقد السياسة في المغرب، مما يدل على أن الخطاب الإصلاحي في هذه المرحلة سيتغير بحكم الاطلاع على التجربة الأوروبية في هذا المضمار من جهة، ومن جهة ثانية هذا التأخر الحضاري العميق الذي يعيشه المغاربة وكأنهم في زمان غير ذلك الزمان الذي وصلت فيه أوروبا من الرقي ما أدهش العالم الإسلامي عند دخولها إليه مستعمرة، يقول: "... ليس لدينا ولا ما يطلق عليه اسم قانون، ولا لهذا الاسم معنى عندنا فمهما دخل الأجنبي أرضنا إلا وكان مطلق التصرف حسب إرادته وشهوته وكنا تحت رحمة استبداده...".^{lxx}

كان الحجوي على وعي تام بانتهزام المغاربة أمام التحديث المتجلي في التطور الذي وصلته أوروبا، وعلى وعي بمرجعية هذا التطور والتحضر الذي حققته، وعلى وعي بأن دعوته إلى اقتباس التنظيمات منها دعوة إلى الاقتباس من أوروبا النصرانية المستبدة، لكن كل ذلك لم يشكل بالنسبة إليه مشكلة، لأنه كان واعيا بالمشكلة المرجعية الحضارية الخطيرة. ولذلك لم يكن ليدعُ إلى اقتباس ما يخالف الشرع، أو ما يضرب في أصل من أصول الدين، وهو الفقيه العارف بالشرعية ومقاصدها، العارف بالأصول التي تقوم بها قوة واستعداد الأمة، أي الأصول العلمية والتقنية والتنظيمية المشتركة بين جميع البشر. وهو بهذا يرد على فئة المحافظين الذين لم يتقبلوا فكرة تجديد الأنظمة السياسية العتيقة وآليات الاشتغال، يقول: "أقبح الخلال التي أودت بالإسلام هو جمود متأخرهم على كل قديم، وتفريطهم في حفظ النظام، وإهمالهم إصلاح الأنظمة القديمة التي لن تبقى مناسبة للأحوال المتجددة، وغلبة الوهم على أفكارهم حتى عدوا المحافظة على القديم من فروض الدين، وليس حفظ القديم دينا إلا في المعتقدات والتعبادات، وما سواهما فالدين يقدم فيه حفظ المصلحة العامة وصون البيضة وارتقاء الأمة".^{lxxi} ولذلك لم يتوان الحجوي في الدعوة إلى ضرورة التحديث، تحديث نظام الحكم السياسي في البلاد، بدءا بإحياء مجلس الشورى الذي عرف في الإسلام.

أشار الحجوي في كتابه "النظام في الإسلام" إلى أن النظام الذي يسير بالأمة إلى القوة والمنعة هو الذي يركز على الشورى التي هي عدو الاستبداد، ولذلك تجده يؤصل له من الأصول المرجعية الإسلامية، ويبين أن المجتمع الإسلامي في بدايات تشكله بني على الشورى في الاختيار، والتولية، وفي تنفيذ الأحكام، واختيار النظام، يقول: "إن نظام الإسلام في مجتمعه العام مبني على أمتن الأصول وأثبتها، وأقوم المحججات وأبينها، بني على الشورى وعدم الاستبداد. قال تعالى خطابا لنبيه: (وشاورهم في الأمر). وليس ذلك خاصا به عليه السلام؛ بل هو واجب على الأمة أيضا... إن نظام الخلافة الإسلامية في أصلها شورى سواء في تولية الخليفة، أو إجراء الأحكام وسن القوانين، وكان لأبي بكر مجلس من المهاجرين والأنصار يستشيرهم، ولعمر كذلك ومن بعدهم، فنظامهم أشبه بنظام جمهوري تنتهي مدة الرئيس بموته. إذ لم يتخذوا آلة ولا

شارة الملوك، وكان شوريا مقيدا بشورى الأعيان وأهل العلم انتخابيا... ثم تغير إلى الملكية المقيدة في الجملة زمن معاوية لتغير الأحوال ونقصان مدارك الأمة... ثم لما زاد تأخر الأمة في تهذيبها ومداركها صارت الملكية مطلقة".^{lxxii}

يَبَيِّنُ الحجوي كيف كان لتأخر الأمة في مداركها تأثير على نظام الحكم الذي آل إلى الملكية المقيدة ثم المطلقة، وحينما ذهب الشورى مع ذهاب الخلافة الراشدة، وعند حصول ذلك الانحراف التاريخي الذي أذهب العدل والمساواة بين المسلمين وجاء الاستبداد، ومع توالي القرون استفحل الظلم والجور، وأسكتت الأصوات الناهية عن المنكر، واغتيل الرأي الحر... وهذا في نظره ما ينبغي الوقوف عنده لإصلاح الحال، بالاستفادة من تجربة أصحاب الصدر الأول، وكذا الاستفادة من تجربة أوروبا التي وصلت إلى رقيها بسبب نظامها في الحكم الذي أقامته على المجالس الشورية الانتخابية، الذي وإن لم يكن بعينه عند الإسلام لكنه كان وافيا كافيا بحاجياتهم الوقتية، مناسبة لأفكار أمم ذلك العصر لكون هذا النظام العصري لم يتكون دفعا بل كان نتيجة قرائح أمم أوجدته تدريجيا في أجيال متطاولة من عهد الرومان، وأصله كان عند عمر وأبي بكر ومن بعدهما، ولم تكن الضرورة قابلة لهذه الأنظمة الجديدة، ولقد كان مجلس شورى الخلافة الذي نظمه عمر وهو محتضر أقنوما عجيبا اهتدى بهديه من خاض في نظام المجالس بعده، وذلك دلني على تفكيره في نظام انتخابي لمجلسه الشوري، ولو أوجده لكان أساسا عظيما للشورى في الإسلام لا ينهدم.^{lxxiii}

وقد عمل الحجوي على بيان أن أنظمة الحكم في البلاد الأوروبية لها تاريخ، وأنها كانت تتطور بتطور الزمان وبحسب ما تستدعيه مقتضيات التطور، باعتبار أن التاريخ وما يتضمنه من سنن وقوانين هو نتاج للحركة التاريخية في بناء عمراتها الذي يستدعي التجديد والتطوير دائما على ضوء تلك السنن.

إن السياسة التي كان يطمح إليها الحجوي هي ما يُرمز إليها بسياسة المصلحة، وهي السياسة التي تقيم الألفة بين الناس، وتهدف إلى تعمير البلاد وتنمية الأموال، ورفع الظلم عن العباد... وهذا واضح في نصحه للسلطان مولاي عبد الحفيظ، حيث يقول: "هذه الأحوال وما وصلنا إليه من الارتباك والاختلال... فلا نجد سفينة ولا منجاة إلا بشيء واحد، وهو بروز مولانا أيده الله لعبان رعيته، والتحبب إليها بالبحث عن الحقوق الضائعة، والضرب على أيدي الظلمة، وسهره الليل والنهار على ذلك، وهجر كل لذة، وتعهّد مجالس القضاة والعمال والمحاسبين وحضهم على العدل والمساواة بين العباد في الحقوق والضرائب وغيرها، وحسم مادة الزور، وانتهاز الحقوق ممن يخالف ذلك، وسماع شكاوى المظلومين، وتخفيف آلام البائسين...".^{lxxiv} وذلك قمة العدل، والحكم بمراد الله عز وجل، والقيام بمستلزمات الأمانة، أمانة الخلافة عن الله في الحكم بين العباد.

حاول الحجوي لفت انتباه السلطان إلى أهمية مبدأ العدل، وإلى موقعه من الرسالة الدينية التي تكلف بها، ومقاصد الشريعة الأصلية من ذلك، كما أبرز إلى جانب مبدأ العدل مبدأ آخر هو الحرص على تحقيق المصلحة والعدل والسياسة المؤززة، وكان ذلك هو مبدأ الشورى، وهو مبدأ سياسي جوهري جاءت نصوص القرآن الكريم فيه صريحة جدا تعلي من شأنه.

كان الحجوي يريد أن يقوم الحكم على الشورى والديمقراطية، ولذلك تجده لا يزال يذكّر محاولة المولى عبد العزيز في هذا المضمار، ويصفها بكونها "منقبة كبرى تذكر في تاريخ مولاي عبد العزيز فاز بها على من قبله ويكون الفضل على من بعده".^{lxxv} لأن هذا السلطان كان أول من فعل بفكرة الشورى والديمقراطية، وإحداث مجلس الأعيان التي نصحه بها سفراؤه، يقول الحجوي: "وكان أول ما فعله جعل مجلس شورى من الوزراء يعقد كل يوم للتداول في الأمور المهمة التي تعرض عليهم... إنه يريد الخير لأمته، ويدربها تدريجيا على الشورى، وعلى الديمقراطية، وهكذا ينبغي أن تكون الديمقراطية تدريجيا من شورى الوزراء إلى شورى الأمة جمعاء".^{lxxvi}

نصح الحجوي للسلطان أن يظل حريصا على مشاورة أعيان الأمة في كل صغيرة وكبيرة، وألا يبرم أمرا مع أوروبا المتربصة بالمغرب إلا بالمشاورة مع أعيانها.

كانت للرجل رؤية إصلاحية ذات طابع دستوري وسياسي، ولذلك ألح على ضرورة وضع دستور للأمة. كما دعا إلى ضرورة جعل كل وزارة مستقلة في نفسها.. لتجري الأشغال على نسق دائم... فتقل الشكاوى وتضمحل الدعاوى وتنعدم المظالم.^{lxxvii}

أما على مستوى الإدارة، كان الحجوي يرى ضرورة تنظيمها وتنظيمها يقوي من أدائها ويسر تقديم الخدمات للريعية. ولذلك اقترح على السلطان أن يختار لها الأمثل من الموظفين الأكفاء، فإن قال قائل ومن أين لك هذا الدواء النافع؟ ... أجبناه أن الدول الأوروبية والأمريكية والعاجون، إنما نهضت من سباتها ووصلت إلى ما وصلت إليه بتنظيم إدارتها، واحترام الحقوق، وضبط الأموال، وتدريب الجيش، ونشر العلوم والمعارف.^{lxxviii}

الملاحظ أن الحجوي في دعوته إلى الإصلاح السياسي كان يركز على دور السلطان في هذه الإصلاحات، إيماننا منه بأن للسلطة السياسية اليد الطولى في هذا الباب، ولإيمانه بأن رؤاه الإصلاحية تحتاج إلى تنفيذ سياسي عن طريق سلطان الحاكم، فقد حاول تنفيذ بعضها في الوقت الذي كان يتقلد مناصب سامية في دار المخزن فكان يستنصر بها. وعندما كان الرجل بعيدا عن مواقع القرار فقد سعى إلى تنفيذ برنامجه بمحاولة التأثير في السلطان لإقناعه لتبني رؤيته في الإصلاح، وبعدما فقد الأمل في هذا الأخير توجه بمشاريعه الإصلاحية إلى سلطات الحماية من أجل تنفيذ ما كان يصبو إلى تنفيذه على يد السلطان لأنه لم يجد الأذان الصاغية.

أقام الحجوي من أجل ذلك علاقات صداقة من الفرنسيين بحكم أن الحماية أصبحت أمرا واقعا ولا بد من التعامل معها والاعتماد عليها لتحديث المغرب. مما يتبين معه أن الحجوي سلك مسلك الاستنصار في منهجه الإصلاحي للسياسة، استنصار إيجابي يحمل أهل الحكم على تنفيذ الإصلاح بالإقناع، واستنصار سلبي في نظر كثير من رجالات الدولة، حيث توجه إلى سلطات الحماية، مما ألب عليه كثير من المحافظين الذين أقاموا له العدا.

إن ما يلاحظ من خلال أفكاره ورؤاه في هذا المجال أن مكوناته المعرفية متنوعة، فهو يدعو إلى مبدأ الشورى وهذا مفهوم قرآني، كما أنه سنة تاريخية تضمنتها بعض التجارب في تاريخ الأمة، وفي نفس الوقت يدعو إلى الاستفادة من تجارب الآخر باعتبارها تجارب متضمنة سننا لا بد من النظر فيها واستلها ما به تصلح الأمة حاضرها وتستشرف مستقبلها.

خلاصة إن ما يمكن أن نختم به هذه الورقة هو القول: إن مشروع الحجوي الإصلاحي كان مشروعا متكاملا شموليا مستوعبا، مستندا إلى المرجعية الإسلامية قرآنا وسنة، عاملا بمقتضيات الإصلاح فيهما، مستوعبا لسنن التاريخ، موظفا العقل والمنطق، كما كان مشروعه مستوعبا لواقع الأمة في كل مستوياته الفكرية والثقافية والاجتماعية والعلمية والسياسية... لقد كان فقيها بمتطلبات الواقع الداخلي وتأثيرات الواقع الخارجي، ليثبت الحجوي من خلاله رؤاه الإصلاحية بُغْدَ نظره، وسداد ما دعا إليه من إصلاح حقيقي جدير بالإنصاف، لأنها لم تكن مجرد رد فعل على واقع متأزم وحسب، بل كانت محاولة لتأسيس فعل إصلاحي انطلاقا من وعي تام بمحركات الإصلاح.

لائحة المراجع

1. "القرويين في مطلع القرن العشرين بين التقليد والتجديد"، دعوة الحق (عدد 364، السنة 43، دو الحجة 1422هـ، 2002م).
2. آسية بن عداة: الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي نموذجاً (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2003، ط1).
3. حميد الصولي: الفكر المغربي المعاصر دراسة في الإعلام والمؤسسات (مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، 2012م، ص1).
4. سعيد بن سعيد العلوي: الفكر الإصلاحي في المغرب المعاصر محمد بن الحسن الحجوي دراسة في نصوص (بنغازي: المدار الإسلامي، دار الكتب الوطنية، 2007، ط1).
5. عبد الإله الفاسي معلمة المغرب، مادة الحجوي، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا 1419هـ. 1998م.
6. عبد القادر قوبع، "محمد بن الحسن الحجوي (1874. 1956) رائد الإصلاح الشامل في المغرب الأقصى"، مجلة عصور الجديدة (عدد 11-12، خريف-شتاء، فبراير، 1434هـ-1435هـ، 2013م-2014م).
7. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: إصلاح التعليم العربي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 118.
8. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: الرحلة الأوروبية، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 115.
9. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: الصورة الجمالية في خلاصة تاريخ إفريقيا الشمالية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، دفتر 4.
10. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995، ط1).
11. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: المعارف في المغرب وجهود الحكومة، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 199.
12. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: النظام في الإسلام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 118.
13. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 128.
14. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: أهم الأخبار عن حرب الثأر والاستعمار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 12.
15. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: بالاقتصاد حياة بلادنا، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 133.
16. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: تاريخ الموسيقى العربية، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 114.
17. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 205.
18. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: حرب الثأر والاستعمار، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 122.
19. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: خطب في التربية والتعليم، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم: ح 118.
20. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: خطبة ألقاها في مدرسة أولاد الأعيان بالرباط في 1342هـ، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: ح 118.
21. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: مختصر العروة الوثقى (سلا: ب.ن، طبعة 1937).
- محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: مستقبل تجارة المغرب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط

* باحثة في الفكر الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال.
ⁱ ينتهي آل الحجوي إلى الثعالبة الجعفرين المنتسبين إلى جعفر بن أبي طالب، دخل أجداده إلى المغرب في القرن 6 هـ. 12م، فاستوطنوا بجوار وادي سبو شرق المكان المدعو مشروع بلأرج، ثم بمكان حجر الوقاف بضواحي فاس، وأخيراً استقروا بناحية سيدي قاسم. وينسب إليهم مكان احجاجة بين قبيلة أولاد عيسى ونهر ورغة بالضفة اليمنى لنهر سبو. وفي بداية حكم المولى اسماعيل بعد انتفاضة محلية تم نقل جدهم عبد السلام الحجوي مع ذويه إلى تازة، فاشتغل بعضهم بالتجارة وبعضهم بالعلم وبعضهم جمع بينهما كأب الفقيه محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. أنظر: عبد الإله الفاسي: معلمة المغرب ج. 10. (سلا: الجمعية المغربية للتأليف والنشر، 1419هـ. 1998م)، مادة الحجوي، صص 3336-3337.

ⁱⁱ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. الجزء الأول. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995)، ص 12.

ⁱⁱⁱ أبو عبد الله السليمان، اللسان المعرب عما آل إليه حال المغرب، ص 150.

^{iv} الحجوي: الفكر السامي...، ص 10.

^v تتلمذ الحجوي الثعالبي على يد علماء كبار، أشهرهم: أحمد بن الخياط الزكراوي ومحمد بن التهامي الوزاني ومحمد بن عبد السلام كنون، ومحمد القادري، والحاج أحمد بن سودة، وعبد السلام الهواري وغيرهم. وقد ترجم لشيخه في كتابه: الفكر السامي، الجزء الثاني.

^{vi} الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الجزء الرابع، صص 205-209.

- ^{vii} الحجوي: الفكر السامي...، الجزء الأول، صص 10-11.
- ^{viii} أنظر: أسية بن عداة: الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي نموذجاً (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2003، ط1)، ص 71.
- ^{ix} أنظر: الحجوي: الفكر السامي...، الجزء الأول، ص 19.
- ^x الحجوي: الفكر السامي...، الجزء الأول، ص 14.
- ^{xi} للوقوف على المؤلفات التي ألفها الحجوي ومواضيعها، راجع: أسية بن عداة: الفكر الإصلاحي...، ص 89 وما بعدها.
- ^{xii} أسية بن عداة: الفكر الإصلاحي...، مرجع سابق، ص 15.
- ^{xiii} من كتاب للسلطان المولى عبد الحفيظ على يد الفقيه أحمد الخضر. انظر: الحجوي: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 128، ص 74.
- ^{xiv} الحجوي: الفكر السامي...، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص 226.
- ^{xv} "القرويين في مطلع القرن العشرين بين التقليد والتجديد"، دعوة الحق (عدد 364، السنة 43، دو الحجة 1422هـ.. 2002م)، ص 20.
- ^{xvi} الفكر السامي، الجزء الرابع، ص: 228، 229.
- ^{xvii} الحجوي: الرحلة الأوربية، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 115، ص 178.
- ^{xviii} الحجوي: المعارف في المغرب وجهود الحكومة، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 199، ص 2.
- ^{xix} انظر: الحجوي: الرحلة الأوربية، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 115، ص 106.
- ^{xx} الحجوي: خطب في التربية والتعليم، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم: ح 118، ص 69.
- ^{xxi} الحجوي: خطب في التربية والتعليم، مرجع سابق، ص 68.
- ^{xxii} الحجوي: الرحلة الأوربية، مرجع سابق، ص 124.
- ^{xxiii} الحجوي: الرحلة الأوربية، مرجع سابق، ص 446.
- ^{xxiv} الحجوي: النظام في الإسلام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 118، ص 96.
- ^{xxv} الحجوي: الرحلة الأوربية، مرجع سابق، ص 159.
- ^{xxvi} الحجوي: خطبة ألقاها في مدرسة أولاد الأعيان بالرباط في 1342هـ، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: ح 118، ص 69.
- ^{xxvii} من الرسالة التي بعث بها الحجوي إلى المولى عبد الحفيظ مع أحمد الخضر الشنقيطي الحجوي: : انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مرجع سابق، ص 75.
- ^{xxviii} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الثاني، ص 396.
- ^{xxix} الحجوي: الرحلة الأوربية، مرجع سابق، ص 158.
- ^{xxx} انظر: نص المحاضرة في: حسن أحمد الحجوي: العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي 1757- 1912، ص 265-266.
- ^{xxxi} انظر: الحجوي: الرحلة الأوربية، مرجع سابق، ص 139 وما بعدها.
- ^{xxxii} الحجوي: مختصر العروة الوثقى (سلا: ب.ن، طبعة 1937)، ص 19.
- ^{xxxiii} انظر: الحجوي: بالاقتصاد حياة بلادنا، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 133.
- ^{xxxiv} الحجوي، مستقبل تجارة المغرب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 115. ينظر نصها في: سعيد بن سعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث، ص 149 وما بعدها.
- ^{xxxv} الحجوي، حرب الثأر والاستعمار، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 122، ص 19.
- ^{xxxvi} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الثاني، ص 404.
- ^{xxxvii} حسن أحمد الحجوي، العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي (1912. 1757)، ص 170.
- ^{xxxviii} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الأول، ص 12.
- ^{xxxix} الفكر السامي، الجزء الرابع، ص: 360.
- ^{xl} كانت حكومة الحماية الفرنسية تنظم المحاضرات والمسامرات بالمعهد العلمي بالرباط.
- ^{xli} عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر، الجزء الأول، ص: 68.
- ^{xlii} نفسه، ص: 69.
- ^{xliii} رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة، وأبو يعلى وغيرهما، عن جماعة من الصحابة، وصححه الألباني في جامع الصحيح.
- ^{xliv} مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 237، ص 5.
- ^{xlv} سورة الحجرات، الآية: 11.
- ^{xlvi} الحجوي، تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 205، ص 190. حقق المخطوط سعيد بن سعيد العلوي في كتابه: الفكر الإصلاحي في المغرب المعاصر محمد بن الحسن الحجوي دراسة في نصوص (بنغازي: المدار الإسلامي، دار الكتب

الوطنية، 2007، ط1)، ص 193 وما بعدها. انظر أيضا تحقيق نفس المخطوط في كتابه: الاجتهاد والتحديث دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، الطبعة الثانية 2001، ص 200 وما بعدها.

^{xlvi} الحجوي، تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مرجع سابق، ص 194.

^{xlviii} الحجوي، تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مرجع سابق، ص 194-195.

^{xliv} الحجوي، تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مرجع سابق، ص 195.

ⁱ انظر: الحجوي: إصلاح التعليم العربي، مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم: ح 118، ص 27.

^{li} الحجوي: إصلاح التعليم العربي، مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم: ح 118، ص 28.

^{lii} الحجوي: تاريخ الموسيقى العربية، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 114، ص 462.

^{liii} الحجوي: تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مرجع سابق، ص 29.

^{liv} انظر: تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مرجع سابق، ص 218.

^{lv} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الثاني، ص 396.

^{lvi} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الثاني، ص 225.

^{lvii} مخطوط الخزان العامة بالرباط، رقم: ح 237، ص 4.

^{lviii} الحجوي: تعليم البنات المسلمات، مخطوطة الخزانة العامة، الرباط، رقم: ح 114، ص 450.

^{lix} من أعلام الفكر المعاصر، الجزء الأول، ص 76.

^{lx} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الرابع، ص 568.

^{lxi} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الرابع، ص 564.

^{lxii} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الرابع، ص 562.

^{lxiii} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الرابع، ص 562.

^{lxiv} قال المدير العام للمعارف "هاردي" بعد ما اطلع على هذه المحاضرة مُنوها بالحجوي الثعالبي: "فهي بعد كونها ديوانا لأصول التجارة وآداب التاجر، أكبر دليل على غزارة علمكم، وبعد غورككم في المعارف العصرية، ونظركم بعين التدقيق والاستنتاج إلى ما شاهدتموه في رحلتكم الأوربية". مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم: ح 115، ص 88. كما لم يفت من طبعها في تونس وهو معاوية التميمي أن ينوه بالمحاضرة وصاحبها، إذ يقول: "ومن الأهم في بلوغ المراد العناية بالاقتصاد... إذ لا يتسنى تقدم بدون... ومن حسن طالع الأمة أن يقيض الله فيها رجالا يعرفون مكانم الداء... كالمرشد المصلح، والناجح الأمين صديقنا العلامة الشيخ محمد الحجوي، فإنه ما ترك فرصة تضيع سدا، فإنه رغم أشغاله الهامة ما فتي يرشد وينصح". مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم: ح 115، ص 23. انظر نص المحاضرة كاملا في: سعيد بن سعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، ص 149 وما بعدها.

^{lxv} انظر: الحجوي، مستقبل تجارة المغاربة، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 115، ص 456.

^{lxvi} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الرابع، ص 562.

^{lxvii} عبد القادر قوبع، "محمد بن الحسن الحجوي (1874. 1956) رائد الإصلاح الشامل في المغرب الأقصى"، مجلة عصور الجديدة (عدد 11-12،

خريف-شتاء، فبراير، 1434هـ-1435هـ، 2013م-2014م)، ص 386.

^{lxviii} الحجوي: الفكر السامي، الجزء الرابع، ص 565.

^{lxix} انظر: أهم الأخبار عن حرب الثأر والاستعمار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 12، ص 115.

^{lxx} انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مخطوط الخزانة العامة، رقم: ح 128، ص 123.

^{lxxi} الحجوي: النظام في الإسلام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 118، ص 100.

^{lxxii} الحجوي: النظام في الإسلام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 118، ص 95.

^{lxxiii} انظر: الحجوي: النظام في الإسلام، مرجع سابق، ص 96.

^{lxxiv} من الرسالة التي وجهها الحجوي إلى السلطان المولى عبد الحفيظ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ح 123، ص 117.

^{lxxv} الحجوي: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مرجع سابق، ص 23.

^{lxxvi} الصورة الجمالية في خلاصة تاريخ إفريقيا الشمالية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، دفتر 4، ص 32 وما بعدها. تأسف الحجوي عن فشل هذه المحاولات الإصلاحية التحديثية التي أرادها السلطان ولم يعنه عليها الوزراء الذين لم يكونوا في مستوى المسؤولية، وكذلك الشعب لم يتقبلها لأنه موغل في الجهل، متعصب ضد كل مبادرة إصلاحية آتية من الخارج، فكان ما جناه السلطان بسبب هذا الرفض يقول الحجوي: "هو تضاعف الصوائر حتى هلك ما كان متوفرا في الخزائن، مما جعله يستدين من أوروبا ديونا كانت السبب في التدخل المالي والعسكري ثم في كل الشؤون". انظر نفس المخطوط في وصف الحجوي للأوضاع التي كان عليها مغرب مولاي عبد العزيز والإصلاحات التحديثية التي تطلع إليها، والعقبات التي حالت دون ما كان يصبو إليه هذا السلطان الشاب.

^{lxxvii} الحجوي: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مرجع سابق، ص 14.

